ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 143 - 166

المرامي الخفية والمعلنة لفرنسا من وراء سياستها التربوية في الجزائر إبان الاحتلال

سعيد حمدي شريف
طالب دكتوراه، المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة، الجزائر.
Said.ensb@yahoo.fr
تاريخ الإرسال:2019/05/10؛ تاريخ القبول:2020/02/14

The Hidden goals enunciated to France from behind the educational policy in Algeria during the occupation.

Abstract:

Through this paper, the researcher seeks to highlight what France insists on instilling in the Algerians through its educational policy, which has not been enough to conquer Algerians by using all means of subjugation by force, because she knew that she would not be informed of her goal, as she was looking for stability in Algeria and annexing these The precious piece to its territory definitively, and therefore I thought of other methods that are more effective, methods that subject souls and wash minds, that will make the Algerian people soluble in their civilization, and from there be docile, and to that end they are different goals and supported by arbitrary measures, some of which were Overt and subtle, where I worked to destroy all that was uniting the Algerians about their religion, their homeland, their history and their civilization, and that is what the researcher will do to investigate it in this paper.

Keywords: Educational policy; Fundamentals; Frenchification; Arabic; Identity.

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 143 - 166

الملخص:

يحاول الباحث من خلال هذه الورقة البحثية إبراز ما كانت تصر فرنسا على غرسه في الجزائريين من خلال سياستها التربوية، التي لم يكفها قهر الجزائريين باستعمال كافة وسائل الإخضاع بالقوة، لأنها كانت تدرك بأنها لن تبلغ بها إلى مبتغاها، فهي كانت تبحث عن الاستقرار في الجزائر وضم هذه القطعة الغالية إلى أراضيها بصفة نهائية، ولذلك فكرت في أساليب أخرى أنجع، أساليب تخضع النفوس وتغسل العقول، من شأنها أن تجعل الشعب الجزائري قابلا للذوبان في حضارتها، ومن ثمة يكون سهل الانقياد، ولتحقيق تلك الغاية سطرت أهدافا متنوعة ودعمتها بإجراءات تعسفية، كانت بعضها علنية وأخرى خفية، حيث عملت على تحطيم كل ما كان يوحد الجزائريين حول دينهم ووطنهم وتاريخهم وحضارتهم، وهذا ما سيعمل الباحث على استقصائه في هذه الورقة.

الكلمات المفتاحية: السياسة التربوية، مقومات، الفرنسة، الثقافة العربية، الهوية.

مقدمة:

إن المتأمل في المنظومة التربوية الجزائرية اليوم، على ما هي عليه من اختلالات وتأزمات على المستويين التنظيري والعملي، وبعد مرور سبعة وخمسين (57) سنة من الاستقلال، يجد نفسه دائما عائدا بناظره إلى مخلفات الاحتلال الفرنسي، فيفترضها أسبابا لنكبة ملازمة لمنظومتنا التربوية، فإذا أراد أن يتحقق من فرضيته بالعودة إلى ما كان يحاول الاحتلال الفرنسي تجسيده في أذهان ونفوس الجزائرين من خلال سياسته التربوية طيلة مائة واثنين وثلاثين (132) سنة من الاحتلال، وجدها متحققة إلى حد بعيد، من أجل هذا أراد الباحث في هذه الورقة أن يسلط الضوء عن الأهداف والمرامي التي سطرها الاحتلال خلال تلك الحقبة، كان سنده الذي عول عليه في ذلك، هو تحطيم التعليم الذي

كان سائدا، كونه كان يغذي الشعب الجزائري ـ على ضعفه ـ بكافة المقومات الضرورية التي تحفظ بقاءه على قيد الحياة ـ إن جاز التعبير ـ وفي الوقت ذاته جعل من مدارسه التي أنشأها سواء تلك التي وجهها عن قصد لتعليم فئة من الجزائريين، أو تلك التي كانت موجهة للأوروبيين وكان يسمح للجزائريين للتعلم فيها، فإنها كلها لم تخل من من نوايا خبيثة، هذه الأخيرة التي كانت تصب جميعها للوصول إلى غاية كبرى هي تعزيز وجودها في الجزائر من خلال تذويب مقومات الشعب الجزائري الثقافية والدينية والحضارية، وتكوين نخبة طيعة من لحم ودم جزائري ينتظر منها قيادة الشعب المجهّل بعناية إلى ما تبتغيه فرنسا.

لا يسعنا في هذا المقام التحقق من تأثير مخلفات سياسة الإحتلال الفرنسي التربوية على نظامنا التربوي الذي انفصل عنها منذ الاستقلال، وإنما قد نكتفي بالاشارة إلى ذلك عند استعراض الأهداف والنوايا التي عملت فرنسا على تجسيدها إبان الاحتلال، وقد جاء تقسيم محاور هذه الورقة بتخصيص المحور الأول للحديث عن حرص فرنسا الشديد على قطع كل سبل تعلم الشعب الجزائري للدين الاسلامي، وسعيها الحثيث لمنعهم من تعلم اللغة العربية، بينما جاء المحور الثاني للحديث عن الرسائل التي عملت فرنسا بشتى الوسائل على تمريرها عن طريق مدرستها المزعومة وأهمها الفرنسة بكل ما تحمله من معاني، والتنصير للاستحواذ على عقيدة الجزائريين.

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 143 - 166

القضاء على تعليم الدين واللغة العربية:

أدركت إدارة الاحتلال الفرنسي منذ الوهلة الأولى أن الاسلام يلعب دور الجدار الواقي ضد تلبية رغباتها وتحقيق آمالها، انطلاقا من كونه يرمز لنقطة التقاء كل المكونات الاجتماعية والثقافية للبلد ضد السياسة الاستدمارية، وهذا ما جعله خطيرا جدا في عيونها. ومن هنا، وضعت سياسة تربوية تعليمية موجهة ضد الاسلام وتقاليده، في خدمة المصلحة العليا للدولة الفرنسية.

لقد تعاملت سلطة الاحتلال مع المسألة الدينية في البداية باستخدام القوة، من خلال إغلاق وتهديم المساجد، ومصادرة الأموال والأملاك الوقفية، وتجريف الجبانات وغلق الزوايا ومنع ممارسة الاسلام وتعليمه بغلق مدارس التعليم القرآني، وطرد الأئمة والمفتين، ومراقبة وضبط الاحتفالات الدينية، ومنع الحج. لكن عندما اقتنعت باستحالة اقتلاع الاسلام من جذوره رغم هذه الممارسات عمدت إلى التحكم الرسمي في الاسلام، وذلك بإضعافه من خلال إعداد رجال دين مسلمين في مدارسها يمكن من خلالهم التحكم بالتعاليم الاسلامية في المساجد ومرتاديها، وبذلك تجمع في يدها أنفذ وسائل الإفساد، فلقد أنشأوا المدارس الشرعية الفرنسية الثلاث الذي كان التعليم فيها موجها ومتواضعا من أجل تخريج رجال دين ضعفاء يسهل انقيادهم.

ولا شك أن غاية الاحتلال من هذا التحكم في شعائر الدين بتعيين إمام جاسوس خائن ومفت فاسد وقاض منافق مرتش ـ كما يقول مالك بن نبي ـ هو أن يجعل من الاسلام صورة عجيبة من حياة اصحابه المستعمرين(مالك بن نبي، 2002: 117)، وهو نفس ما أقر به

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 143 - 166

لوشاتلييه سنة 1910 ـ فيما ينسب إليه ـ عندما قال: «إن فرنسا قد اصطنعت في الجزائر إسلاما فريدا خاصا بها كما اصطنعت له رجالا من نوع خاص، وكل هذا الإصطناع جاء عن طريق اضطهاد المؤسسات الإسلامية ... وخلال ثمانين سنة اصطنعنا إسلاما فذا في العالم، بدون أوقاف، وبمساجد إدارية... وقضاة موظفين، وحج برخصة، وها نحن نصوغ الآن (كودا) لقيطا من إنتاج الفقه الإسلامي والقانون الفرنسي»(أبو القاسم سعد الله، 1998/ 4: 349).

والملاحظ أنه حتى عندما جاءت الجمهورية الثالثة التي تبنت مبدأ فصل الدين عن الحكم والذي جسدته في قانون 9 ديسمبر 1905م، وبعده قانون27 سبتمبر 1907م، فإن هذين القانونين لم يشملا الدين الاسلامي، وكل ما قامت به الإدارة الفرنسية هو تشكيل بعض الهيئات الدينية التي أسندت رئاسة بعضها إلى مسيحيين من أجل خدمة مصالحها في الجزائر(عبد الحميد زوزو: 374،375).

كما يلاحظ أن قانون 8 مارس 1938م كان موجّها نحو التعليم العربي الحر وحده، ولم يشمل التعليم الحر الفرنسي الذي تقوم به الهيئات التنصيرية في الجزائر، كما لم يشمل التعليم العبري الذي تقوم بنشره المعابد اليهودية، ومضت سنوات في إغلاق المكاتب القرآنية ومكاتب التعليم الديني حتى لم يبق منها إلا القليل(عبد الحميد بن باديس، 1937: 8)، ناهيك عن حملات الاعتقال الواسعة للمعلمين المسلمين (في التعليم الحر) وتقديمهم للمحاكم الزجرية بدعوى أنهم ينتهكون القوانين لأنهم يعلمون دون رخصة(البصائر، 1939: 1).

وحتى عندما كان يسمح للبعض تأسيس الجمعيات الخيرية للقيام بهذا الدور، بقيت حدود نشاط الجمعيات محصورة في الاهتمام بأمور الفقراء والمساكين ولم يكن من شأنها التدخل في القضايا التي رأت إدارة الشؤون الاهلية أنها من اختصاصها ولا ينبغي أن تنازع فيه، فبقي التدخل بذلك شاملا لدق التفاصيل من تعيين موظفي السلك الديني...إلى خطب الجمعة التي كانت مقننة ومبرمجة ولا حرية للمبادرة فيها من قبل الخطباء، فهي مكتوبة من قبل المستشرقين الفرنسيين ومكرسة للتنويم والتخدير لا حديث فيها إلا عن الآخرة والموت والتسليم لولاة الأمر الفرنسيين(أبو القاسم سعد الله، 1998/ 4: 365، 366).

أما الحديث عن اللغة العربية ومحاربة الاحتلال الفرنسي لها فيعد أيضا من المشاريع الاستدمارية التي سعت فرنسا إلى اجتثاثها والقضاء عليها نهائيا، لأنها أدركت أن بقاء هذه اللغة في أوساط الجزائريين سيشكل عقبة كبرى في طريق فرض سيطرتها التامة على الجزائر، وهذا على حد تعبير الدوق دو روفيقو ـ الذي حكم الجزائر في الفترة ما بين ديسمبر 1831 إلى غاية بداية سنة 1833 ـ في إحدى رسائله إلى وزير الحربية في باريس بتاريخ 15 أكتوبر 1832م: «إن إيالة الجزائر لن تكون حقيقة من الممتلكات الفرنسية إلا بعد أن تصبح لغتنا لغة قومية فيها...والمعجزة التي ينبغي تحقيقها هي إحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية تدريجيا ومتى كانت اللغة الفرنسية لغة السلطة والإدارة فإنها سوف لن تلبث أن تنتشر بين الأهالي...» (Charles Féraud, 1876 , p230 ;231.).

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 143 - 166

زادت حدة العداوة اتجاه اللغة العربية مع بروز الجمهورية الفرنسية الثالثة، حيث بدأت بسياسة تعليمية جديدة أغلقت بموجبها كل المدارس الموجهة للجزائريين التي كانت تدرس في الظاهر اللغة العربية، ولم تبق منها إلا المدارس الشرعية ـ الفرنسية الثلاث التي أصبحت تدرس باللغتين.

وعلى فرض أن اللغة العربية لم تكن ممنوعة في الجزائر فإنها تقهقرت بسبب وجودها المستديم في وضعية المغلوب(مصطفى الأشرف، 2007: 417) عبر سياسة المحاصرة والتضييق التي بدأت منذ الأيام الأولى للاحتلال، ثم تواصلت طيلة فترة الاحتلال لتتوج في الأخير بقرار وزير المعارف الفرنسي في 08 مارس 1938 الذي اعتبر فيه العربية لغة أجنبية في الجزائر يمنع تعليمها في المدارس سواء كانت حكومية فرنسية أم شعبية حرة كمعاهد التعليم الحر(الطاهر سعود، 2012: 236)، فلا يتم تدريسها إلا على أساس أنها أجنبية وبترخيص خاص من إدارة الاحتلال، ومن هنا تعرضت مدارس التعليم الحر إلى الكثير من المضايقات والمحاكمات وفرضت عليها الغرامات الفادحة (رابح تركي، 1981: 130).

وقبل ذلك عرف مشروع محاصرة وإضعاف العربية مراحل متتالية ففي ديسمبر 1904 أصدر الحاكم العام الفرنسي قرارا يمنع فيه أي معلم جزائري من فتح مدرسة لتعليم العربية دون الحصول على رخصة من الإدارة، مشروطة في حالة القبول باقتصار التعليم على تحفيظ القرآن من دون التعرض لشرح آياته وخاصة تلك التي تتحدث عن الجهاد، مع الولاء التام للإدارة والخضوع لأوامرها، حتى أصبح ميسورا كما يقول

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 143 - 166

مالك بن نبي أن تفتح ناديا للميسر أو مقهى أكثر من أن تفتح مكتبا لتحفيظ القرآن(مالك بن نبي، 2002: 116).

وقد تمثلت محاربة الاحتلال للغة العربية في الأمور الآتية:

اعتماد سياسة فرنسة التعليم في المرحلة الابتدائية، وجعل اللغة العربية لغة أجنبية واختيارية في بقية المراحل الأخرى؛ والحقيقة أن فرنسا كانت تفرق اللغة العربية إلى ثلاث لغات: عربية عامية، عربية فصحى، عربية حديثة.

ورغم أن دستور 1947 في مادته 57 اعترف رسميا باللغة العربية إلا أن الاهتمام الرسمي بها بقي هامشيا حتى اندلاع الثورة التحريرية(الطاهر سعود، 2012: 236)، لأن المفتشين الفرنسيين للتعليم الفرنسي عارضوا ذلك القرار بدعوى أن اللغة العربية العامية ليست لها قيمة إلا كلهجة، ولا اللغة العربية الفصحى التي هي في رأيهم لغة ميتة، ولا اللغة العربية الحديثة التي هي في نظرهم أجنبية لا يصلح أن تكون مادة إجبارية في التعليم الابتدائي، وبذلك لم يكن للغة العربية أي وجود في هذا الطور، كما وقفوا ضد تطوير برامج اللغة العربية في مرحلة التعليم الثانوي، حتى تبقى هامشية وضعيفة، ففي هذه المرحلة وإن كانت اللغة العربية نظريا مدرجة في برامج التلاميذ إلا أنه على أرض الواقع كانت الإدارة الفرنسية تنفرهم وتصرفهم عنها بشتى السبل إلى لغات أخرى كالانجليزية والاسبانية وغيرها، كما تعمدت الإدارة الفرنسية توظيف معلمين للغة العربية تنقصهم الكفاءة والتكوين التربوي اللازمين حتى ينصرف التلاميذ عنها أيضا. ولم تكتف الادارة الاستعمارية بذلك فقط، إذ فضلا عن ضعف برنامج اللغة العربية كان

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 143 - 166

يتم شرحها باللغة الفرنسية، فالكتب المدرسية االتي كلف بإعدادها أساتذة ليست لهم معرفة كافية بالعربية وآدابها ملؤوها بالحكايات التافهة المكتوبة بأسلوب يمزج بين اللغة العربية الفصحى والعربية العامة مع شرح وبيان باللغة الفرنسية(رابح تركي، 1981: 136، 137، 138).

اتضحت معالم محاربة اللغة العربية في إصرار الإدارة الفرنسية على فرض اللغة الدارجة (العامية) بدل الفصحى في المدارس، بل أن حتى اللغة الدارجة لم تسلم من التحريف لكثرة ما شابها من كلمات فرنسية دخيلة تسربت إلى ألسنة الجزائريين، يكتب كاتب جزائري في جريدة البصائر ناصحا ومحذرا الشباب الجزائري من هذا الأمر قائلا: «لئن كان منكم من حيل بينه وبين الفصحى، فإن الرطانة التي تفاحش أمرها في عمر الوطن، وتشوهت بها الألسنة أيما تشويه تركتنا خائفين على لغتنا العامية ذلك الخيال الباقي من العربية»(أبو العباس بن الهاشمي ، 1936: 2).

ـ استغلال وسيلة المدرسة لفرنسة وتنصير الجزائريين:

من بين الأهداف المرسومة من أول لحظة فكرت فيها فرنسا احتلال الجزائر هو القضاء على الدين الاسلامي وإحلال الدين المسيحي مكانه، لأنه من الأهداف التي تسهل عملية بسط نفوذه على المستعمرين بإدماجهم في منظومته الثقافية والدينية بطرق سلمية، وقد عبر عن ذلك صراحة أحد أعمدة التنصير في الجزائر شارل ديفوكو حين قال: «إن لم يتنصر المسلمون في مملكاتنا الاستعمارية بالتدرج والليونة.. وإذا لم تصر تلك الشعوب فرنسية..فإنها ستخرجنا حتما من بلادها، فالوسيلة الوحيدة التي نصيرهم بها فرنسيين هي أن يصبحوا مسيحيين»(محمد صالح الهرماسي، 2001: 111).

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 143 - 166

فالمدخل الاستراتيجي الفعال لتحقيق النفاذ والتغلغل الاستعماري؛ أي الفرنسة هو التنصير، لذلك فلا غرابة أن نلحظ سعيا فرنسيا حثيثا ومبكرا اتجاه تدعيم عمليات تمسيح الجزائريين. ويكفي أن نشير إلى أهمية المدرسة في تكوين رجال المستقبل, وخاصة في توجيههم نحو قبول معتقدات وإديولوجيات ثم تبنيها لتكون الدستور الذي يسير عليه أفراد المجتمع قاطبة.

إن الاحتلال في نظر بعض الباحثين ركّز على ثلاثة أركان، تمثلت في «الجندي والمعمر والمعلم» والأخطر في هذه الثلاثية هو عندما يكون ذلك الركن الثالث أي المعلم مبشرا؛ لا يعمل فقط على نشر لغة المستعمر وثقافته، بل يسعى كذلك إلى نشر الديانة المسيحية مقابل الطعن في دين الأهالي، ومحاربته بكل ما أوتي من علم ووسائل مادية(وعلي محمد الطاهر، 1988/ 1989: 41). ولهذا سعى المنصّرون انطلاقا من المدرسة في الجزائر إلى تكوين جيل من النصارى ينبذ أفراده ماضيهم الاسلامي، وينسلخون من عروبتهم، ويندمجون روحيا في الثقافة الفرنسية المسيحية(وعلي محمد الطاهر، 1988/ 1989: 40).

إن المرحلة التي عرف التعليم التنصيري نشاطا كبيرا هي تلك الممتدة بين(1876 ـ 1892) وهي فترة تعرض فيها المجتمع الجزائري للعديد من الجوائح وبخاصة مجاعات عقد الستينات، كما بلغت أيضا عملية التحطيم المبرمج لأبنيته الأصلية مداها، وهو ما جعل عملية التنصير أمرا ميسورا من الناحية العملية(الطاهر عمري، 2003/ 2004: 45)، في هذه الفترة الحرجة تولى الكاردينال لافيجري مهمة إدارة شؤون

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 143 - 166

الديانة المسيحية بالجزائر، فكان أكبر شخصية سيطرت على النشاط التنصيري في الجزائر على الاطلاق.

هذا عن التنصير أما الحديث عن سياسة الفرنسة التي سار عليها الاحتلال فإنها لم تشمل فقط التعليم في مختلف مراحله، من مناهج، ونظم، وكتب، ولغة تدريس، وإدارة تعليمية، وتوجيه عام، ولكنها شملت كل مجالات الحياة الاجتماعية، والثقافية، والإدارية في البلاد.

إن الهدف من سياسة الفرنسة هو محاولة صبغ البلاد بصبغة فرنسية خالصة في كل صغيرة وكبيرة، حتى تنقطع جميع الروابط التي تربط الجزائر ماضيا وحاضرا ومستقبلا بثقافتها ولغتها القومية، وتاريخها الاسلامي، وانتمائها الحضاري إلى الأمة العربية، حتى تنشأ الأجيال الجزائرية الصاعدة في ظل هذه السياسة المرسومة نشأة ممسوخة في كل شيء، ومقطوعة عن جذورها الأصلية لأنه لا يوجد شيء في الحياة العامة بالجزائر يذكرها بماضي الأسلاف والوطن وبذلك يصبح أسهل انقيادا، لسياسة الفرنسة، وأكثر قابلية لنتائجها وعواقبها الوخيمة على الشخصية القومية الجزائرية(رابح تركي، 1981: 107).

ولتحقيق هذا الهدف أنشأت فرنسا المدارس، يقول ميرانت نقلا عن دي بوسيه: «إن الهدف كان محو التعصب الديني والكراهية عن طريق التعليم بالفرنسية والحضارة والتقدم، وذلك لا يكون إلا بإحداث لغة مشتركة في الجيل الصاعد وتقريبه من الفرنسيين بتبنيه نفس الأفكار ونفس المصالح»(أبو القاسم سعد الله، 1998/ 3: 329، 330)، كما جاء على لسان المتصرف المدني الفرنسي سنة 1832م وهو جنتي بوسيه الذي كان مسؤولا عن التعليم في الجزائر والمخطط للسياسة الفرنسية في

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 143 - 166

هذا الميدان: «من المستعجل جدا أن نمكن الأهالي من لغتنا أكثر مما هو مستعجل أن نمكن أنفسنا من لغتهم. فالعربية لن تكون مفيدة لنا إلا من جهة علاقتنا مع الإفريقيين، أما اللغة الفرنسية فهي لا تبدأ علاقتهم معنا فقط، ولكنها بالنسبة إليهم هي المفتاح يدخلون بر الأمان، فهي التي تجعلهم يعرفون كتبنا، ويتعرفون على أساتذتنا، أي يكونون على اتصال بالعلم الفرنسي»(أبو القاسم سعد الله، 1998/ 3: 328) وهذا يظهر بجلاء روح العداء لكل ما هو عربي وما هو إسلامي، والرغبة في القضاء على حضارة كاملة وإحلال حضارة أخرى غربية محلها.

واشتد الحرص على تنفيذ هذا الهدف أكثر من ذي قبل، مع الجمهورية الثالثة التي ارتأت أن تعليم الجزائريين في الفترة الماضية لم يحصل منه نتيجة لفرنسا، وأن الجزائرين مع حبهم للتعليم إلا أنهم بقوا متمسكين بتراثهم، وهذا ما جعل الادارة الفرنسية تغير من سياستها، فلم تعد في حاجة إلى مراعاة شعور الجزائريين، وبذريعة ثورة 1871م في الجزائر أغلقت كل مؤسسة فيها اسم العربية أو الاسلام وقطعت ميزانياتها عقابا لهم، وجاءت بسياسة الفرنسة والاندماج(أبو القاسم سعد الله، 1998/ 3: 341).

ويمكن إجمال الأساليب والوسائل التي انتهجتها ادارة الاحتلال لفرنسة المجتمع الجزائري، والتي تعتبر أهدافا ووسائل في نفس الوقت في ما يلي:

نشر اللغة الفرنسية

إن الإدارة الاستعمارية في الجزائر عند سعيها لنشر اللغة الفرنسية كانت تدرك تمام الإدراك أن الشعب الذي يفقد لغته الأصلية ليكتسب لغة الغير، إنما يكتسب في الوقت نفسه ثقافة وأسلوب حياة المستعمر

الناطق بتلك اللغة، إذ ينحصر اهتمامه بارتشاف المعرفة من المنشورات والكتب والصحف التي يصدرها المستعمر، وأهم من ذلك كله من المدرسة التي توجهها وترعاها أيادي الاحتلال، وفي الأخير يجد هذا الشعب نفسه أسيرا لحضارة جديدة مفروضة عليه يتفاعل معها ويتعاطف مع المستعمر في قضاياه ومشكلاته، وقد رأينا كيف كانت الإدارة الفرنسية تحرص على تلقين الجزائريين اللغة الفرنسية في كل أنواع المدارس التي أنشأتها سواء تعلق الأمر بمدارس التعليم المزدوج، أو المدارس ذات التعليم الفرنسي الخالص، بل حرصت على تعليمها للأهالي حتى في المساجد مثل ما حدث في أحد مساجد باتنة، إذ ذكرت جريدة المبشر يوم 15 أوت 1855 أنه تم الشروع منذ 10 مارس 1855 في تدريس اللغة الفرنسية في المسجد على يد مترجم المكتب العربي، وهو مسلم وذكرت أن عدد الحاضرين لتعلمها بلغ 22 تلميذا وكلهم من الأسر الكبيرة.

إن الإدارة الاستعمارية في الجزائر عندما شرعت في نشر اللغة الفرنسية في أوساط الجزائريين كان بهدف تكوين نخبة جزائرية متشبعة بالثقافة الفرنسية متعلمة تعليما فرنسيا متقنة للغة الفرنسية اتقانا جيدا وبذلك تسهل عملية بث أفكارهم الاستعمارية في عقول الجزائريين وجعلهم على استعداد تام لتقبل الهيمنة الفرنسية والاحتواء الحضاري.

تشويه التاريخ الجزائري وإهمال تعليم الجغرافية الجزائرية:

بما أن مادة التاريخ الوطني والجغرافيا الوطنية تعتبران من المواد العلمية ذات الاستراتيجية الخطيرة في بناء الكيان القومي والوطني للمتعلمين في سائر مراحل التعليم، فقد تركزت عليهما جهود الاحتلال

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 143 - 166

بالمسخ والتشويه تارة، وبحرمان الجزائريين من دراستهما العلمية الوافية في معاهد التعليم المختلفة تارة أخرى(رابح تركي، 1981: 116).

فمن ناحية المسخ والتشويه كان الأطفال الجزائريون في مدارس الاحتلال يدرسون في مادة التاريخ الذي يعتبر بمثابة شعور الأمة وذاكرتها ووعيها بكيانها «كانت بلادنا قديما تسمة الغال وكان أجدادنا يسمون الغاليون تماما مثلما كان يدرس التلميذ الفرنسي في مقاطعة نورماندي» والقصد من هذا المسخ والتشويه للتاريخ الوطني الجزائري واضح وهو أن ينشأ أبناء الجزائر الذين يدرسون في مدارس الاحتلال على هذه الصورة وهم يتقدون منذ الصغر بأن أصل أجدادهم ينحدر حقيقة من الغاليين في جنوب فرنسا، وبذلك يصبحون أسهل انقيادا، وأسرع استجابة، لقبول نتائج سياسة الفرنسة، والتنصير، والادماج في فرنسا، وهي السياسة التي تهدف إلى محو شخصية وطنهم القومية محوا كاملا.

ومن ناحية حرمان الجزائريين من دراسة تاريخ بلادهم الوطني كانت مقررات التاريخ في التعليم الابتدائي وغيره تتوسع كثيرا في تدريس تاريخ فرنسا في جميع العصور حتى يلموا به إلماما كافيا بينما لا يدرس لهم تاريخ الجزائر إلا باختصار كبير وفي أسابيع قليلة فقط في المرحلة الابتدائية وحدها(رابح تركي، 1981: 116).

وإلى جانب ذلك منعت فرنسا تدريس التاريخ الجزائري في المدارس والكتاتيب القرآنية الحرة تلك التي أقامها الشعب الجزائري بتبرعاته الخاصة لتعليم أبنائه مبادئ اللغة العربية، والدين الإسلامي، والتاريخ الوطني، ففي عام 1904 على سبيل المثال أصدر الاحتلال قانونا يحظر

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 143 - 166

على الجزائريين فتح أي مدرسة أو كتاب قرآني إلا بترخيص خاص من الإدارة وعندما تمنح الرخصة لطالبها يشترط عليه وجوب استبعاد تاريخ الجزائر وجغرافيتها من مناهج الدراسة. وإلا تعرض إلى سحب الرخصة منه وإغلاق المدرسة أو الكتاب(رابح تركي، 1981: 117).

كان التاريخ يدرس للجزائريين في المدارس الفرنسية باختصار شديد وخلال أسابيع معدودة في المرحلة الابتدائية، وكان هذا المنهج يحاول أن يغرس في أذهان التلاميذ الجزائريين أن بلادهم تعتبر جزءا لا يتجزء من الوطن الفرنسي(الأم) وأن الجزائر تمثل ثلاث مقاطعات فرنسية فيما وراء البحر المتوسط، في الوقت الذي تدرس فيه جغرافية فرنسا بتفصيل واف في كل مراحل التعليم(رابح تركي، 1981: 118). ولعل قول بن حبيلس يعتبر أصدق دليل على مدى التشويه الذي تعرض له التاريخ الوطني الجزائري فقد لقن بأن الجزائر كانت قبل مجيء فرنسا سنة 1830 كانت «تعيش الصراعات القبلية الوحشية والهمجية اللامحدودة»، وبفضل وصول فرنسا تحقق الأمن وعاد الاستقرار والاطمئنان للجزائر وسكانها، وعلى هذا الأساس كان يدعو الجزائريين للتقرب أكثر من فرنسا والتعاون معها، معتبرا كل الانجازات التي أقامتها الإدارة الاستعمارية في الجزائر من مدارس وغيرها، أنها من الأعمال الخالدة التي ساهمت في إخراج المجتمع الجزائري من حالة التخلف والهمجية التي كان يتخبط فيها منذ مئات السنين، وهو لا يمل من مخاطبة الجزائريين بقوله: «كفانا من عصور الانحطاط...فالجزائر لم تكن سوى عش للصوص البحر وقطاع الطرق قبل مجيء فرنسا»(ابراهيم لونيسي، 2010: 17).

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 143 - 166

تخويف الجزائريين وإظهار جوانب العظمة لديها:

كانت سياسة التعليم الفرنسية تعمل على تخويف التلاميذ الجزائريين وذلك بإعطائهم فكرة مبالغا فيها عن قوتها العسكرية، وإمكانياتها الاقتصادية، ونفوذها السياسي الخ.. كي يستسلموا لاحتلالها الغاصب ويأسوا من كل مقاومة جدية له باعتباره قوة لا تقهر. وقد أسند قادة الإحتلال إلى المدرسة مهمة القيام بتحطيم الروح المعنوية للجزائريين الذين أطلقوا عليها اسم: «الغزو من الداخل» نظرا لما يتوفر لديها من وسائل الإقناع والترغيب عن طريق برامجها التعليمية، ونشاطاتها التربوية المختلفة، من صحافة، ومسرح، وموسيقى، وأناشيد، وخطابة، وألعاب رياضية وغيرها(رابح تركي، 1981: 119).لترسيخ أطروحة الفارق العلمي والثقافي بين المستعمر وبين الخاضع للاستعمار، وغرس فكرة التفوق الذهني للجنس الفرنسي. وهذا ما أكده الشيخ محمد البشير الابراهيمي عندما بين أنهم لا يترددون في: «وصم العربي بأنه بليد الفكر جامد القريحة سطحي التفكير مسدود الشهية العلمية ويتوسلون بذلك إلى تزهيد العربي في مزايا إسلامه واحتقاره لها ولهم»(محمد البشير الإبراهيمي، 1939: 16، 17).

إثارة النعرات ونشر عوامل الفرقة بين الجزائريين:

كانت سياسة التعليم الفرنسية في الجزائر تعمل على نشر الفرقة والشقاق بين قطاعات الشعب الجزائري وإثارة النعرات التي قضى عليها الاسلام منذ أربعة عشر قرنا، وقد تجلى هذا العمل في السياسة البربرية التي أرادت فرنسا من ورائها تقسيم الشعب الجزائري إلى مجموعتين متنافرتين من السكان عرب وبربر(البصائر، 1952: 6).

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 143 - 166

يفسر هذا ما قام به مشروع جول فيري التربوي في منطقة القبائل، حيث استطاع في ظل نظام الحكم المدني أن يبني فيها حوالي خمسة عشر (15) مدرسة، كما أصدر مرسوم في 9 نوفمبر 1881 يقضي بانشاء 8 مدارس أخرى، كما رأى ضرورة تكوين معلمين في اللهجة البربرية، وكان يشجع على اتقانها بأن حدد جائزة معتبرة لكل من يتقنها، وتوجت هذه المجهودات بأن أنشأت الإدارة الحاكمة سنة 1885 قسما خاصا باللهجة القبائلية البربرية في مدرسة الآداب بالجزائر، واستطاع أن ينشئ أيضا سبعة مدارس مهنية عبر الجزائر كلها، منها أربعة في منطقة القبائل وحدها، لقد جاء الاهتمام بالتعليم في منطقة القبائل تكملة لما حققه الأسقفية تهدف إلى ضرب مقومات المجتمع الجزائري من خلال تذويب هذه الشريحة وجعلها قوة محلية يمكن بواسطتها تخويف الطرف الآخر(بوضرياسة بوعزة، 2012: 230، 231)، أو زرع بذور الفرقة والتشتت الذي من شأنه إضعافهم وتسهيل اخضاعهم.

العمل على إدماج الجزائريين في فرنسا:

عملت فرنسا على إدماج الجزائريين في الحضارة الغربية منذ البداية، فقد أعد الجنرال كلوزيل في 18 ديسمبر 1830 مشروعا لارسال أبناء أرقى الأسر الجزائرية إلى فرنسا لغرضين: تزويدهم بتعليم أوروبي، والاحتفاظ بهم كرهائن فلا ينشأ الأطفال تحت رعاية آبائهم، ولا يتشبعون بعقائدهم وتقاليدهم، وهو ما حصل فعلا.

ويمكن لنا القول هنا أن الادارة الاستعمارية قد نجحت في تحقيق بعض الأهداف التي سطرتها ضمن سياستها التعليمية في الجزائر _ ولو كان ذلك جزئيا_ إذ ظهرت في أوساط المجتمع الجزائري شريحة متوسطة

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 143 - 166

العدد تتحدث باسم فرنسا، وتدافع عن وجودها في الجزائر أكثر من الفرنسيين أنفسهم. ومن أبرز الطلبة الجزائريين الذين أرسلتهم إلى فرنسا وقدموا بعد ذلك خدمات جليلة للغة الفرنسية في الجزائر، بلقاسم بن سديرة الذي تم تعيينه أستاذا في مدرسة تكوين المدرسين بالجزائر(جريدة المبشر، 1864) وقد أنجز الكثير من الدراسات خدمة للغة الفرنسية في الجزائر، ويبدو أنه عمل ما في وسعه للابتعاد عن اللغة العربية الفصحى بهدف ضربها، فهو يقول في إحدى خطاباته للجزائريين: «إن اللغة الفرنسية هي لغتكم الأم، لقد بدأتم في الاستماع إليها منذ اليوم الأول الذي ولدتم فيه» فهذا دليل على مدى تأثير الثقافة الفرنسية على هذا الشخص(إبراهيم لونيسي، 2010 :12).

حصر تعليم الجزائريين في أضيق الحدود

اتبعت إدارة الاحتلال الفرنسي سياسة حصر تعليم الجزائريين في نطاق ضيق، فقد كانت فرص التعليم أمام الجزائريين طوال فترة الاحتلال محدودة للغاية، إذ حتى عام 1957م كان ثمن مجموع الأطفال الجزائريين الذين هم في سن التعليم الابتدائي يستطيعون الالتحاق بالمدارس الابتدائية ومن بين هؤلاء يتمكن 10% فقط من مواصلة الدراسة في المرحلة الثانوية ، وأقل بكثير من هذه النسبة في المرحلة الجامعية (صلاح العقاد، 1971: 8).

كما قامت فرنسا بتوجيه الجزائريين نحو تعليم بسيط هزيل بهدف تجهيلهم وإبعادهم عن مقوماتهم الرئيسة، فلم يكن في الجزائر حتى عام 1907 أكثر من 450 مثقفا جزائريا(أبو القاسم سعد الله، 1992/ 2: 160)، وبالإضافة إلى ذلك فإن الجزائريين كان يتم توجيههم نحو التعليم

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 143 - 166

النظري، بينما التعليم المهني أو الفني كان من نصيب الأوروبيين، وقد كانت تخلق العقبات في وجه الجزائريين لتمنعهم من الالتحاق بمعاهد التعليم الزراعي بوضعها شروطا قاسية للدخول إليها ومقابلا ماديا يفوق قدرات الجزائريين، ولم تكن تعطيهم منحا دراسية إلا النادرين منهم، وحتى عندما يتخرج منها البعض منهم فإن الوظائف لا يكون لهم حظ منها بل كانت حكرا على الأوروبيين فقط(رابح تركي، 1981: 160).

بالإضافة إلى سياسة فرنسا المتمثلة في التقليل من عدد المتعلمين الجزائريين وحصرهم في عدد محدود لا يتم تجاوزه، وكان ذلك بسبب العراقيل التي كان الاحتلال يضعها في طريقهم عند الانتقال من مرحلة تعليم إلى أخرى، ومن ذلك مثلا أن من شروط انتقال التلميذ من المرحلة الابتدائية إلى المرحلة الثانوية (المتوسطة) ألا يتجاوز سنه اثنتي عشرة سنة، وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن الأطفال الجزائريين لا يدخلون المدارس الابتدائية إلا في سن السابعة في الغالب ولا يدرسون في مدارس الحضانة أو رياض الأطفال ثم هم يتعلمون نصف الوقت المخصص لأبناء الأوروبيين لعدم وجود مقاعد كافية في المدارس المخصصة للجزائريين، وبالتالي يدرسون مقررات ناقصة بالنسبة لأبناء الأوروبيين(رابح تركي، 1981: 163)، بالإضافة إلى فرض مصاريف تعليمية باهضة تفوق إمكانات الجزائريين المحدودة ، وفضلا عن ضآلة عدد المتمدرسين الجزائريين في المعاهد الفرنسية في كافة المستويات(ابتدائي، متوسط، ثانوي، جامعي) فإنهم يعاملون داخلها معاملة عنصرية قاسية من الإدارة، والأساتذة، ومن زملائهم الأوروبيين

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 143 - 166

أيضا، وهنا نستشهد بما كتبه طلبة من الأوروبيين في وصفهم لجامعة الجزائر:«إن جامعة الجزائر تشبه بطبيعتها أية جامعة إقليمية في فرنسا من جميع الوجوه، وإن الطلاب الجزائريين لم يدمجوا فيها دمجا فعليا بل ألحقوا بها وقبلوا كشر لا بد منه»(رابح تركي، 1981: 154).

وقد حورب توسع تعليم الجزائريين بذرائع شتى منها أن زيادة عدد الأطفال الجزائريين يهدد المركز المادي للأوروبيين. ولذلك كان الاحتلال يقتر على الجزائريين تقتيرا شديدا على المدارس والفصول المخصصة لهم، بينما كان التعليم الموجه للأوروبيين على قدر عال من الاهتمام.

لاحظ السيد لوروي بوليو سنة 1886م وهو بصدد المقارنة بين التعليم الموجه للمستوطنين والتعليم الموجه للجزائريين أن فرنسا لم تقم بأي شيء جدي لتعليم الجزائريين رغم أنها قد تسلطت عليهم منذ خمسين سنة. وقد لا حظ أن عدد المدارس الابتدائية للفرنسيين بلغت 697 مدرسة، بينما لا توجد سوى 21(واحد وعشرون) مدرسة للجزائريين، أما عدد التلاميذ في الابتدائي فهو 53666 بالنسبة للفرنسيين والأوروبيين، ولكنه لا يتجاوز 3172 تلميذ من الجزائريين(أبو القاسم سعد الله، 1998: 295، 296)، وهي إشارة واضحة إلى الاهمال خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار عدد سكان الجزائر وعدد المستوطنين.

وقد اعترف كثير من المفكرين الفرنسيين الذين زاروا الجزائر بحالة تعليم الجزائريين بحيث قال أحدهم سنة 1954 م: «أنه وزملاءه رأوا بأعينهم أن مليونين من أبناء الجزائر لا يتلقون أي تعليم على أي مقعد مدرسي وذلك بعد أن بسط النظام الاستعماري عليهم رحمته مدة 125

سنة» ثم قال:«رأينا الجزائريين لا يشاركون في التعليم الابتدائي إلا بنسبة 10% فقط وليس لهم في التعليم العالي إلا نحو 300 طالب ورأينا الأبواب العلمية موصدة في وجه الجزائريين، وخرجنا من كل ذلك بنتيجة عظيمة إذا كنا في فرنسا نجهل معنى العنصرية، فإن العنصرية في القطر الجزائري هي القانون الأسمى المعمول به»(البصائر، 1954: 1).

الخاتمة:

ما يمكن أن نخلص في نهاية هذه الورقة البحثية أن الاحتلال الفرنسي كانت له نظرة أكيدة لما كان يصبو له، وقد تحقق نسبيا، فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد أن لغة الجزائريين المتداولة في الحياة اليومية أصبحت مزيجا بين اللغة الدارجة واللغة الفرنسية، وهو من مخلفات التعليم الفرنسي الذي كان يفرض استعمال الدارجة المشروحة بالفرنسية، هذا فضلا عن التأثير المعنوي الذي نلمسه في تفاخر شريحة كبيرة من الجزائريين في استعمال اللغة الفرنسية في التواصل بدل اللغة العربية والاعتزاز بذلك، والطامة الكبرى أن معظم الوزراء والمسؤولون الكبار في الدولة لا ينفكون استعمال اللغة الفرنسية ويتنكرون للغتهم الأم، كما يبدو أن مظاهر العظمة والتحضر والمدنية لا تزال عقول بعض الجزائريين حاملة لها لحد اليوم، وهو ما يؤكده طلبات السفر إليها الكثيرة لقصود مختلفة.

لا يمكن أن ننكر أن أساليب فرنسا لإخضاع الفرد الجزائر ذهنيا ونفسيا وعقائديا قد أتى بثماره نسبيا بعد الاستقلال، الشاهد في ذلك الصراع المرير الذي خاضه ويخوضه لحد اليوم، تيار المتفرنسين التغريبيين ضد التيار الوطني العروبي إن جاز التعبير، لكن بعد مرور 50 (خمسين)

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 143 - 166

سنة من الاستقلال نلمس تحررا نسبيا للفرد الجزائري من مؤثرات الثقافة الغربية التي زرعتها فيه فرنسا والتي نماها فيه طيلة هذه السنون مختطفو ثمار الثورة المنتفعين من فرنسا، وبعض المستلبين حضاريا، فلا يكاد الشعب بأكمله على وعي تام بما قامت به فرنسا إبان الاحتلال وما قامت به بعد الاستقلال من خلال تدخلاتها المباشرة وغير المباشرة في نظمنا وخاصة النظام التربوي، إن هذا الوعي لهو أول مبشر لفك القيود التي طالما كان مكبلا بها، في انتظار صناعة مستقبله الذي يلوح مشرقا في الأفق. على ضوء قيمه: الإسلام والعروبة والوطنية لا ينازعه فيها أحد.

*** المراجع:**

ـ الإبراهيمي، محمد البشير(1939)، مجلة الشهاب، الجزء الأول، المجلد الخامس عشر، قسنطينة، الجزائر.ص(11 ـ 20).

ـ الأشرف، مصطفى(2007)، الجزائر: الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، الجزائر، دار القصبة للنشر.

ـ العقاد، صلاح (1971)، السياسة والمجتمع في المغرب العربي، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية.

ـ الهرماسي، محمد صالح (2001)، مقاربة في إشكالية الهوية، المغرب العربي المعاصر، ط1، دمشق، دار الفكر.

ـ بن الهاشمي، أبو العباس(1936)، جريدة البصائر، العدد8.

ـ بن باديس، عبد الحميد(1937)، جريدة البصائر، عدد90.

ـ بن نبي، مالك (1986)، وجهة العالم الاسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط1، بيروت ودمشق، دار الفكر.

ـ بن نبي، مالك (2002)، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط4، دمشق، دار الفكر.

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 143 - 166

ـ بوضرياسة، بوعزة (2012)، سياسة فرنسا البربرية في الجزائر 1830 ـ 1930 وانعكاساتها على المغرب العربي، ط2، الجزائر، دار الحكمة.

ـ تركي، رابح (1981)، التعليم القومي والشخصية الجزائرية (1931 ـ 1956) دراسات تربوية للشخصية الجزائرية، ط2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

ـ جريدة البصائر(1939)، عدد151، الجزائر.

ـ جريدة البصائر(1954)، عدد270، الجزائر.

ـ جريدة البصائر(1956)، عدد 189، الجزائر.

ـ جريدة المبشر، 22 أوت 1864.

ـ زوزو، عبد الحميد، محطات في تاريخ الجزائر دراسات في الحركة الوطنية والثورة التحريرية(على ضوء وثائق جديدة)، الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع.

ـ سعد الله، أبو القاسم (1998) تاريخ الجزائر الثقافي(1830 ـ 1954)، ج3، ج4، ط1، بيروت، دار الغرب الاسلامي.

ـ سعد الله، أبو القاسم(1992)، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، ط4، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

ـ سعود، الطاهر(2012)، الحركات الإسلامية في الجزائر، الجذور التاريخية والفكرية، ط1، دبي، المسبار للدراسات والبحوث.

ـ عمري، الطاهر (2003 ـ 2004)، النخبة الوطنية الجزائرية ومشروع المجتمع، 1900 ـ 1940، رسالة دكتوراه غير منشورة، في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر.

ـ لونيسي، إبراهيم (2010)، دور الإدارة الاستعمارية في نشر اللغة الفرنسية في الجزائر، مجلة الحوار المتوسطي، الصادرة عن مخبر البحوث والدراسات الاستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي، جامعة الجيلالي اليابس، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، المجلد2، العدد2، ص(9 ـ 18).

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 143 - 166

ـ وعلي، محمد الطاهر(1988 ـ 1989)، التعليم التبشيري في الجزائر من 1830 إلى 1904، دراسة تاريخية تحليلية، رسالة ماجستير في علوم التربية غير منشورة، معهد علم النفس وعلوم التربية، جامعة الجزائر.

- Charles Féraud(1876), les Interprètes de l'armée d'afrique, Alger,A.Jourdan.

للإحالة على هذا المقال:

ـ سعيد حمدي شريف(2020)، المرامي الخفية والمعلنة لفرنسا من وراء سياستها التربوية في الجزائر إبان الاحتلال » . **المواقف**، المجلد:16 ، العدد:01، مارس 2020، ص ص 143-166.